أسلوب القرآن فى المحاجة والجدل وخطابة أرسطو

للأستاذ عبد الوهاب حمودة
المدرس بكلية الحقوق

٢

النصرانية فى بلاد العرب

(١) النصرانية دين من الأديان التى كانت قبل الاسلام ببلاد العرب ، وهذه اللفظة كما تدل على الدين تكون واحدة النصارى ، ومفردهم نصران منسوب — على رأى اللغويين — إلى بلدة الناصرة ، كان ينزلها عيسى عليه السلام . فنسب إليها فقيل : عيسى الناصرى(١) . والناصرة تتبع مدينة داود المعروفة ببيت لحم .

والذى جاء بهذه الديانة فى ثوبها الصحيح هو عيسى عليه السلام ، وقد ذكر اسمه فى القرآن بلفظ المسيح تارة وهو لقب له ، وبلفظ عيسى وهو اسمه العلمى ، وبكنيته ابن مريم تارة أخرى . أما لقبه فيقول بعض اللغويين إنما لقب به لكونه ماسحا فى الأرض ، أى ذاهبا فيها . ولكن الرأى الأقرب الى الصواب أن هذه الكلمة مأخوذة من الكلمة العبرية مشيح ، بمعنى ممسوح بالدهن ، أى مدهون ، فعرب فقيل مسيح . وأما عيسى فهو معرب عن العبرية ، وهو فيها يشوع ، أى المخلص ، اشارة الى أنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم (٢)

(٢) دخلت النصرانية بلاد العرب قبل الاسلام بأكثر من خمسة قرون ، إما فرارا من الاضطهادات الدينية .

(١) القاموس والصحاح وتفسير القرطبى حـ ١ .
(٢) قصص الأنبياء للاستاذ النجار .

قال جول لابوم : « أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئا فشيئا الى بلاد العرب ، هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن فى حالهم نور يجذب البصر تألقه » (١) .

وقال جورج سيل : « ان ما ألمّ بالكنيسة الشرقية من الاضطهادات والاضطرابات فى صدر المئة الثالثة للميلاد قد اضطر الكثيرين من النصارى الى أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية » (٢) .

وإما عن طريق أولئك المبشرين الذين كانوا يجوبون بلاد العرب ويجوسون خلال نجودها وتهامها (٣) . جاء فى تاريخ الكنيسة « وكانت صحارى سورية والبلاد العربية مملوءة بالرهبان دعاة المسيحية فى القرن الرابع » (٤) . وقال مرجليوث : « وكان القسوس يغشون أسواقهم العامرة ، ومجتمعاتهم الحافلة ، ليسمعوهم وعظهم وتعاليمهم (٥) » .

ثم ألم يرو الرواة فى كتب الأدب أن قس بن ساعدة الإيادى أسقف نجران كان يغشى سوق عكاظ ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على جمل أورق يخطب خطبته الوعظية المشهورة . ومرجليوث يرى ان اسمه محرف عن (Kasha) . كشا باللغة السريانية بمعنى قس (٦) .

ويذكرون أيضا فى سبب تنصر أهل نجران أن رجلا يقال له فيمون وقع بين أظهرهم ، وكان رجلا صالحا زاهدا من أهل دين عيسى بن مريم ، فحمل أهلها على المسيحية (٧) .

---

(١) ص ١١٨ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدى .
(٢) ص ١٧ من مقدمة ترجمة القرآن لسيل .
(٣) ص ٢٧ من كتاب انتشار الاسلام لولسون كاش ، ص ٣١ فجر الاسلام .
(٤) ص ١٩٩ من كتاب تاريخ الكنيسة .
(٥) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .
(٦) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .
(٧) ص ٣٠ الروض الأنف ج ١

وإما عن طريق التجارة ، فكان تبادل السلع يصحبه تبادل الأفكار والمذاهب ، كما حدث ذلك فى نقل عبادة الأصنام إلى بلاد الحجاز مما سنفصله فى حينه (١) .

(٣) دخلت النصرانية بلاد العرب وقد فسدت أصولها ، وتشعبت مذاهبها ، والتوت تعاليمها ، وكثرت طقوسها ، فنكب بها أهلها عن سواء السبيل . (٢)

فانقسمت المسيحية فرقا وكنائس . أهم تلك الفرق ثلاث : النسطورية واليعقوبية والملكانية .

منشأ هذا الخلاف أن النصرانية هى إحدى الديانات التى ولدت فى الشرق ، وانتشرت فى الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية — وحينئذ فهى إما أن تطغى على الفلسفة اليونانية وتكتسح أمامها جميع المذاهب الفلسفية ، وإما أن تتودد إليها وتتخذ منها سندا فى تأييد عقائدها الدينية ؛ فكان أن اتخذت لنفسها الطريق الثانى ، لأن كثيرا ممن اعتنقوا ذلك الدين كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين . وبذلك أخذت الفلسفة اليونانية تدخل فى المسائل الدينية ، كتحديد ماهية الله وكنهه وطبيعة المسيح وأإله هو أم انسان اختير لتبليغ رسالة الله الى خلقه وغير ذلك من المسائل الفلسفية التى امتزجت بأصول النصرانية ولا سيما مسألة التثليث ، وأول من أثار الكلام فيها أوريجين (١٨٥ — ٢٥٤ م) .

وكانت مدرسة الاسكندرية — وهى قد ظهرت فى أواخر القرن الثانى للميلاد — أول معهد اتصلت فيه الفلسفة اليونانية بالديانة المسيحية (٣) ، ثم امتدت موجة النزاع والجدال وظهور البدع فكثرت المجامع العامة أو المسكونية ، كما

---

(١) ص ٢٧ انتشار الاسلام لولسون كاش .

(٢) ص ١٥ مجلة الجامعة المصرية القديمة محاضرات الحضارة الاسلامية لجويدى ، ص ١١٨ و ٢٢١ و ٣٢٥ من كتاب تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم ، ص ٢٨ من المحمدية والمسيحية ، جورج هويك .

(٣) ص ١٦٣ و ١٧٤ و ١٧٥ تاريخ الفلسفة للأستاذين محمد على مصطفى وأحمد عبده خير الدين

يسمونها. فمن تلك المجامع، المجمع الثالث: وسببه أن نسطورس بطرك(١) القسطنطينية فى سنة (٤٢٨ م) - وقد تخرج فى قاليقلا (كليكيا) على يد ثيودوروس زعيم جماعة من اللاهوتيين أفرغوا الوسع فى تنزيل الكتاب المقدس الى درجة العقل البشرى حيث اعتبروه خاضعا للانتقاد والتأويل اللغوى — اعترض على تلقيب مريم بوالدة الإله — ذلك اللقب الذى جعله البعض ذريعة إلى الافراط فى احترام العذراء وإكرامها — وقال: إنما ينبغى أن تدعى والدة المسيح فقط، وأن اطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة. وقال فى خطبته يوم الميلاد: «إن مريم ولدت إنسانا، وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الألوهية ولا أسجد له سجودى للإله. وكان كيرلس بطرك الاسكندرية شكس الخلق مملوءا غيرة وحسدا، من تقدم كرسى القسطنطينية على كرسيه، فاتخذ تعاليم نسطورس ذريعة إلى مبتغاه، وجعل يحرض عليه كثيرين فى القسطنطينية والمشرق وفى رومية وسائر المغرب، فكتبوا جميعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع، فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس، فاجتمع بها مائتا أسقف وامتنع نسطورس من المجىء إليهم، وشد السريان وأهالى أنطاكية عضده. وهذا هو المجمع الثالث، وكان انعقاده فى سنة (٤٣١ م) فنظروا فى مقالته وحكموا عليه بالحرمان والنفى. فنفى نسطورس إلى صعيد مصر، فنزل مدينة أخميم وأقام بها سبع سنين ومات فدفن بها. وظهرت مقالته فقبلها برسوما أسقف نصيبين، ودان بها نصارى فارس والعراق والموصل والجزيرة إلى الفرات وعرفوا بالنسطورية.

ثم كان المجمع بمدينة خليقدونية — الواقعة على البوسفور قبالة القسطنطينية — لكى يتسنى للملك حضوره، وكان انعقاده فى سنة (٤٥١ م)، وكان مؤلفا من ستمئة أسقف من أساقفة المشرق، وسببه أن ديسقورس بطرك الاسكندرية قال:

---

(١) لا بطريق كما يقول بعضهم، لأن البطريق هو القائد من قواد الروم، فهو منصب سياسى. أما البطرك أو البطريرك فهو منصب دينى. (انظر القاموس وكتاب الألفاظ المعربة للسيد أدى شير. وشفاء الغليل للخفاجى. ومحاضرات الحضارة الاسلامية للمرحوم زكى باشا)

إن المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، وطبيعة من طبيعتين، ومشيئة من مشيئتين . وكان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد ، ورأى أهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيئتان وأقنوم واحد . فلما رأى الأساقفة أن هذا هو رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه ، ماخلا ديسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوا الملك ، وكتب من عداهم من الأساقفة بخطهم ما اتفقوا عليه . فغضب الملك على ديسقورس وأمر بنفيه فنفى . ومن هذا الجمع افترق النصارى وصاروا ملكانية على مذهب الملك مرقيانوس ، ويعقوبية على رأى ديسقورس . وقد اختلف فى تسمية اليعاقبة بهذا فقيل : إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب . وقيل: بل كان له تلميذ اسمه يعقوب ، وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه فنسبوا إليه(١) . وقيل : بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية ، وكان على رأى ديسقورس كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى أو البرذعانى (٢) .

فاليعاقبة فى غسان وسائر قبائل الشام ، والنساطرة فى الموصل والعراق ، وفارس ، والملكانية فى بلاد المغرب وصقلية والأندلس (٣) .

(٤) كانت النصرانية اذن منتشرة على حدود الحجاز من مشارف الشام والجزيرة وسواحل الخليج الفارسى واليمن .

وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة وأهل نجران والحيرة (٤) .

وأهم المواطن لتلك الديانة هى الشام والحيرة ونجران ، أما الشام فقد كان بها الغساسنة ، ومن ملوكهم الذين يذكرهم التاريخ فى تحقيق وثقة : الحارث بن جبلة

---

(١) ص ٢٥٧ الى ٢٦٤ تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم ، ص ٣٨٧ - ٣٨٩ حـ ٤ خطط المقريزى .

(٢) ص ٤٨ الفصل لابن حزم، ص ٣٨٩ حـ ٤ الخطط المقريزية. ص ٢١٦ شفاء الغليل.

(٣) ص ١٤٩ فجر الاسلام للاستاذ احمد أمين. ص ٦٦ روح الاسلام للامير سيد على .

(٤) ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن لسيل ، ٣٦ ، ٣٧ - ٣٨ محمد لمرجليوث ، ص ٢٠ المعارف لابن قتيبة .

المشهور بالأعرج ، وكان هذا الملك نصرانيا على مذهب اليعاقبة (١) .

وقد عينه الأمبراطور يوستنيان سنة (٥٢٩ م) أميرا على جميع قبائل العرب فى الشام ، وكان يعد حاميا من حماة كنيستها .

وآخر ملوكهم هو جبلة بن الأيهم ، وقد جاء الاسلام وهو على ملكه، وأسلم فى عهد عمر رضى الله عنه .

أما الحيرة فقد تنصر كثير من ملوكها ومذهبهم النسطورية . وكان فيها مبشرون بالمسيحية داعون إليها . وللعباد شأن فى ذلك، وهم فى الأصل قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فى الحيرة ، وكانوا كما يقول نيكلسون يبيعون الخمر ، وفى مجالس شربها يلقون تعاليمهم المسيحية ويبشرون بديانتهم النصرانية . وهكذا لقنوا الأعشى وعدى بن زيد مبادئهم مما سنوضحه بعد (٢)

وأول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان الثالث بن المنذر أبو قابوس . وهو صاحب النابغة الذبيانى ، فى القرن السادس ؛ لا كما قال دوزى . إنه المنذر بن ماء السماء ، فان هذا كان يعبد الأصنام ويذبح الذبائح للعزّى كسائر عرب الجاهلية (٣).

ويعزو نيكلسون هذا التنصر إلى تربية النعمان الأولى ، فقد كانت تربيته على يد أسرة نصرانية نبيلة فى الحيرة ، هى الأسرة التى على رأسها زيد أبو عدى الشاعر . فقد كان النعمان تلميذا لعدى يروى شعره ويصغى الى نصائحه ووعظه، مما سنذكر طرفا منه بعد (٤) .

وأبطأ ملوك الحيرة فى التنصر لسبب ، وهو أن الأكاسرة الساسانية كانوا أعداء النصارى الروم ، ولما كانت مملكة الحيرة فى طاعة الأكاسرة خافوا أن يدينوا الملة تكرهها الساسانية ؛ هذا ما كان من أمر الملوك، أما الشعب فالنصارى فيه كثيرون،

---

(١) ص ٥١ تاريخ آداب العرب نيكلسون ، ص ١٩٢ تاريخ العرب قبل الاسلام جورجى زيدان .

(٢) ص ١٣٩ نيكلسون تاريخ آداب العرب.

(٣) ص ١٠٨ محاضرات جويدى فى الجامعة المصرية القديمة .

(٤) ص ٤٥ - ٤٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ص ١٧١ ج ٢ ابن خلدون .

وكان فى الحيرة أسقف منذ أوائل القرن الخامس الميلادى ، والكنائس والأديرة بها كثيرة ، منها كنيسة بنتها هند بنت الحارث كتبت اسمها فى كتابة فوق الكنيسة .

وبموت النعمان الثالث أبى قابوس سنة (٦٠٢ أو ٦٠٧ م) الغت الحكومة الفارسية نظام امارة اللخميين، وولت من قبلها حاكما فارسيا يخضع له أمراء العرب واستمرت الحال على ذلك حتى سنة (٦٣٣ م) حين فتحها خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

وأما نجران فهى أهم مواطن للنصرانية . وأكثر المؤرخين على أن أهل نجران قد حرقهم بالنار ذو نواس المتهود الشديد التعصب لليهودية حين دعاهم الى دينه فأبوا الا البقاء على دينهم المسيحية . وكان ملك ذى نواس فى اليمن فى أوائل القرن السادس للميلاد (١)

غير ان ما يرويه بعض المؤرخين من أن هؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين نزل فيهم قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) غير سديد ومشكل . لأن المقصود من هذه السورة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن إيذاء الكفار ، وتثبيت قلوبهم وحملهم على الصبر والمجاهدة فى سبيله ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الايمان . وهذا لا يكون إلا اذا كان من نزل بهم ذلك العذاب مؤمنين موحدين كما تنص عليه الآية . مع انه ثابت ان أهل نجران كانوا على دين النصرانية وعلى مذهب اليعاقبة ، كما يفسر لنا ذلك إنجاد الحبشة لهم ، ومحاربتهم لليمن قصاصا من ذى نواس محرقهم .

ولحل هذا الاشكال يجيب الأستاذ الامام فى تفسيره (جزء عم) بأن المؤمنين كانوا نصارى نجران عند ما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة .

---

(١) ص ١٠٤ جويدى محاضرات الجامعة المصرية القديمة ، ص ٣٦ مرجليوث كتاب محمد ص ٢٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ٤٢ ترجمة القرآن رودويل ، ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن نسيل

وهذا عندى لا يحل الاشكال ، لأنه من الروايات التاريخية ـ التى يكاد يكون مجمعا عليها ـ أن أهل نجران حين حرقهم ذو نُواس كانوا قد فسد دينهم وظهرت فيهم الاحداث والبدع التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض (١) ، ولهذا ذهبوا يستنجدون بقيصر الروم ـ لأنه على دينهم ـ من اليعقوبية فاعتذر قيصر لبعد الشقة ، وكتب الى ملك الحبشة فى ذلك . هذا وقد كان بنجران بيعة تعرف بكعبة نجران بناها بنو عبدالمدان على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة ، وكان فيها أساقفة . وهم الذين جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى المباهلة فى السنة التاسعة من الهجرة .

ومن يرجع إلى مناقشتهم النبي يعلم مبلغ تعصبهم لدينهم وتمسكهم بكفرهم . وليس بين هذه المناقشة وتلك الحادثة ـ حادثة اضطهاد ذى نواس لهم ـ أكثر من مئة سنة . وبينها وبين تاريخ نزول السورة أقل من تسعين سنة .

والأفضل عندى هو ما أخرجه الترمذى ومسلم فى سبب نزول السورة . ومن أراد فليرجع اليه فى معجم البلدان لياقوت (فى كلمة نجران) . وفى الألوسى فى تفسير السورة وفى الروض الأنف للسهيلى (ص ٣٤ ج ١) .

ومهما يكن من شىء فان النصرانية دامت فى نجران حتى ذهب وفدهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة، فصالحهم على الجزية (٢) ، ثم استمروا على دينهم إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأجلاهم عن نجران وذهب أكثرهم إلى العراق .

(٥) أما أثر النصرانية فى العرب قبل الاسلام فهو ضئيل من حيث العقيدة والبحوث اللاهوتية ؛ وذلك لأن الديانة المسيحية فى صورتها التى استمدتها من الفلسفة اليونانية عسير فهمها على العقل العربى ، صعب تمازجها بالذهن البدوى .

يقول دوزى : « وكانت مسيحية ذلك العصر فى عمومها ـ بما تحويه من الخوارق والأسرار ، وما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من إله مصلوب ـ

(١) ص ٣٠ ابن هشام على هامش الروض الأنف و ٣٢ كذلك .
(٢) ص ٧٢ زاد المعاد ج ٥ على هامش شرح المواهب اللدنية . ٤١ ج ٤ شرح المواهب

قليلة الجاذبية، يعز أن تسود فى شعب حسى كالشعب العربى (١) .

ويقول مرجليوث بصدد ضعف أثر المسيحية فى بلاد العرب : « من الحقائق المدهشة أن هؤلاء المسيحيين من الأعراب لهم قسوس ورهبان وكنائس وصوامع، وفيهم هراطقه ومبتدعون ، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نستدل بما لدينا من المصادر على أن الكتب المقدسة أكانت بأيدى العرب مترجمة إلى لغتهم الأصلية المحلية ، أم أن القساوسة اكتفوا بأن يكون لهم كتب دينية ، ثم يأخذون فى التعليم منها فى لغة يفهمها الأعراب . والأرجح عندى هو الرأى الثانى » (٢)

أما الذى يمكن أن يشاهد من الأثر بوضوح وبلمس فى جلاء ، فهو تأثر فريق منهم بالرهبنة ، والميل إلى الزهد ، وتذكر البعث والحساب والجنة والنار ، والميل إلى النظر فى الكون ، والاعتبار بحوادثه ؛ وقد كثر ذلك فى شعرهم حتى ليحس القارئ وهو يقرأ شعراً لشاعر ، كعدى بن زيد أو أمية بن أبى الصلت أو قس بن ساعدة أو الأعشى ، أنه يسمع نغمات تعاليم المسيح عليه السلام من التزهيد فى الدنيا والاستخفاف بنعيمها ، والاحتراس من غرورها ، وترقب الموت فيها .

ولنكتف هنا بمثال واحد شعرى لعدى بن زيد :

جاء فى الأغانى (ج ٢ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) أن النعمان بن المنذر خرج يتنزه بظهر الحيرة ومعه عدى بن زيد ، فمر على المقابر من ظهر الحيرة ونهرها ، فقال له عدى ابن زيد : أبيت اللعن . أتدرى ماتقول هذه المقابر ؟ قال : لا ؛ فقال له : هى تقول :

أيهـــا الركب المخبو ن على الأرض المجدون
كما أنتم كنا وكما نحن تكونون

ثم خرج خرجة أخرى فمر على تلك المقابر ومعه عدى ؛ فقال له : أبيت اللعن أتدرى ما تقول هذه المقابر ؟ قال لا ؛ قال : فانها تقول :

من رآنا فليحدث نفسه أنه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتى به صم الجبال

(١) ص ١١٧ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدى
(٢) ص ٣٥ كتاب محمد .

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليهـــا فدم وجياد الخيل تردى فى الجلال
عمروا دهراً بعيش حسن آمنى دهرهم غير عجـــال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفتى فى طلاب العيش حالا بعد حال

يقول فون كرامر والسير شارل ليال، ووللهوسن، تعليقاً على هذه القطعة: « إن كثيراً من هذه الاحساسات الدينية لم تكن اسلامية فى نغمتها، وإن عباراتها التى صيغت فيها لم تكن إسلامية فى أصلها. وهذا أثر طبيعى — ولو أنه ضئيل — ونتيجة حتمية لانتشار اليهودية وبخاصة النصرانية (١) ».

على أن من أثر النصرانية أيضا ظهور طبقة الموحدين الذين استنكروا عبادة الأوثان ونفروا من الخضوع للاصنام، كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة.

وهناك أثر بين فى الألفاظ والتراكيب لولا طول الكلام واستطراد البحث لسقنا أمثلة كثيرة، ولنكتف بالبعض، من ذلك: بيعة، واسقف، وقناديل، وصومعة، ودير، ورهبنة، وغير ذلك.

(٦) بقيت لدينا مسألتان لهما اتصال وثيق بالنصرانية من الخير أن نبحثهما ونعرج على دراستهما.

المسألة الأولى — لماذا اختار النبى صلى الله عليه وسلم الحبشة مهاجراً لأصحابه فى الهجرة الأولى؟

والمسألة الثانية — ما السر فى تعليق صورة المسيح وأمه بالكعبة، وقد أنزلت عند دخوله صلى الله عليه وسلم مكة مع الصور الأخرى، مع أن مكة ليست مركزا للنصرانية، ولا من البلاد التى عرفت فى التاريخ بانتشارها فيها؟

المسألة الأولى: عند ما اشتد عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما

(١) ص ١٤٠ نيكلسون.

هو فيه من العافية لمكانه من الله وعمه أبى طالب قال لإصحابه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» .

ولم يذكر أحد من كتاب السيرة حتى المحدثين علة هذا الاختيار ، ومن أين أتى للنبى صلى الله عليه وسلم حسن ظنه بالنجاشى . والسبب فى رأينا هو :

أولا — : أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد أن يكون بلغه عن ذلك الملك حديث عدل وأخبار إنصاف . ولكن كيف انتهى إليه ذلك وهو لم يسافر إلى الحبشة بل كل أسفاره كانت إلى الشام . فالمعقول أنه سمع ذلك من التجار الذين يذهبون ويجيئون بين مكة والحبشة . إذ العلاقات التجارية بين البلدين وثيقة العرى متينة الأسباب . يدلنا على ذلك ماروى فى ذيل الأمالى من ذهاب رؤساء قريش إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس ، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل لتجار قريش فليس ببعيد أن يحمل هؤلاء معهم حديث صلاح النجاشى وحسن عدله ويسمعه النبى صلى الله عليه وسلم (١).

ثانيا — أن بمكة نفرا من الموالى الأحباش ومن فر من جيش أبرهة وفلوله ، فلا يبعد أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع منهم ماحسن ظنه بالنجاشى : فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس » (٢).

وقد ورد أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم ورث عن أبيه مولى يسمى شقران، وكان حبشيا، وورث عن أمه أم أيمن بركة الحبشية حاضنته (٣) .

ثالثا — لم يجعل الرسول مهاجرهم يثرب لأنه يعلم أن العلاقات التجارية بين مكة ويثرب أقوى منها فى الحبشة ؛ فمن السهل إذن أن يتأثر اليهود والأوس والخزرج

---

(١) ص ٢٠٤ ذيل الأمالى للقالى ، ٢٩ روح الاسلام .

(٢) ص ٢٣٦ تفسير جزء عم للالوسى . ص ٦٨٤ الفخر الرازى . ٤٦ و ٤٨ ابن هشام حـ ١ ، ٩١ الازرقى .

(٣) ص ٣٠٧ حـ ٣ شرح المواهب ، ٤٨ المعارف لابن قتيبة .

سكان يثرب بهذه العلاقة فلا يحمون أصحابه ولا يدافعون عنهم ، كما صنع النجاشى برده هدايا قريش وتخييب آمالهم .

رابعا — كانت يثرب فى السنة الخامسة ، وهى التى حدثت فيها هجرة الحبشة فى هرج واضطراب ، وكانت ميدان حروب وقتال .

خامسا — أن يهود يثرب أظهروا معاضدتهم لقريش على النبى صلى الله عليه وسلم وعداءهم وحسدهم للاسلام عند ما أرسلت إليهم قريش يسألونهم رأيهم فى الرسول ، اذهم أعلم به منهم لانهم أهل كتاب ، فكان جوابهم أسئلة ثلاثة ليجيب الرسول عنها ، وحدث ذلك قبل هجرة الحبشة فبانت أمارات الشر فى وجوههم وبشائر اللؤم فى طباعهم . (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

سادسا — لم تكن الهجرة إلى قوم آخرين من عرب قلب الجزيرة ، لهيبة قريش وسلطانهم وارتباطهم تجاريا ودينيا .

سابعا — لم تكن الهجرة إلى الحيرة ، لأنها كانت إذ ذاك خاضعة للفرس ، ودولة الفرس فى ذلك الزمن فى دور الانحلال والاضمحلال .

ثامنا — لم تكن الهجرة إلى الشام ، لأنها تابعة للروم ، والدولة الرومانية فى ضعف واحتضار .

وبعد — فالحبشة إذا هى البلاد الفذة التى ملكها مستقل ، وله شهرة بالصلاح والعدل . وقد صدق ظن النبى صلى الله عليه وسلم فى النجاشى ، وبرهنت الأيام على حسن اختياره وسمو عقله وسعة اطلاعه على ما يدور حوله ويكتنف بلاده . هذا فى رأينا هو التعليل ، لا ماذكره الدكتور هيكل فى كتابه (حياة محمد) من أن نصرانية الحبشة قد اندس اليها من شوائب الخلاف ، مالا يخشى معه على أولئك المسلمين ، فقد كان هذا حال كل بلد فيها نصرانية .

المسألة الثانية : وهى وجود صورة عيسى وأمه فى الكعبة ، فقد ذكر هذا الخبر الأزرقى والزرقانى والحلبى [1] ونقله دوزى ومرجليوث فى كتابيهما ،

(١) ص ١٠٤ و ١٠٦ ، ١٠٧ أخبار مكة ، ٣٣٦ ج ٢ الزرقانى شرح المواهب اللدنية ، ص ٨٧ ج ٣ السيرة الحلبية .

وقد أغفل هذا الخبر فى كتابه الدكتور هيكل ولم ندر سر هذا الاغفال مع أنه نقل شطره ، وهو صورة إبراهيم الخليل يستقسم الأزلام .

أما تعليل هذا الأمر فهو يسير وطبيعى ، وذلك :

أن قريشا كانت أمة تجارية مغرقة فى التجارة حتى قال بعض اللغويين : إنما سميت قريشاً من التقرش ، والتقرش التجارة والاكتساب (١) . حياتها قائمة على التجارة وما تربحه من زيارة الحجيج للبيت (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) .

فنظرتهم إلى الكعبة هى نظرة تجارية (٢). وفى وصية أبى طالب عند موته مايفيد أنهم كانوا يعتبرون الكعبة سببا لجلب الخير لهم ، وعاملا فى أنماء ثروتهم (٣) فعاطفتهم الدينية ضعيفة ، وتمسكهم بدينهم هو فى الغالب تمسك المقلد لآبائه المحتفظ بمنبع يدر عليه الرزق الواسع والخير العميم ؛ فعبادتهم للاصنام لتقربهم إلى الله زلفى (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، وهى فكرة تجارية أيضا . ثم أليس فى مقابلة عبدالمطلب لأبرهة ، وطلبه منه ماله ، وجعل همه هو تخليص بعرانه ما يؤيد هذا الرأى ، ولذا دهش أبرهة لهذا الطلب وعجب من هذه الرغبة دهشة الرجل الذى لا يعدل بالاحساس الدينى إحساساً . فقال أبرهة لعبد المطلب : « أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ » (٤)

وأجلى مظهر لضعف العاطفة الدينية عندهم أنهم لم يكونوا على أمر جامع من عقائدهم ، شأن الذين لا عراقة لهم فى الدين ، وليست لاصنامهم هيئة ممتازة تسيطر على عقائدهم وتمدهم بالتعاليم التى تذكى نار العاطفه فى نفوسهم ، بل كانت وثنيتهم وثنية ساذجة لا تتجاوز تقليد الآباء واتباع الأسلاف . قال تعالى :

(١) ص ٧٠ ابن هشام - ٦١ الأزرقى .
(٢) ص ٤٥ الاصنام لابن الكلبى
(٣) ص ٣٢٨ ج ١ بلوغ الأرب .
(٤) ص ٤٤ ابن هشام ، ٨٩ الأزرقى . والكشاف للزمخشرى تفسير سورة الفيل .

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون » . « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » .

لهذا كله كان فى الكعبة وحولها جميع أصنام العرب التى كانوا يعبدونها ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت (٣٦٠) صنما ، مع أن أصنام قريش ـ وهم سكان مكة وسدنة البيت وزعماء التجارة ـ فيها لا تعدو أصابع اليد وأعظمها (هُبَل) (١)

ولكنهم سمحوا بتعليق كل هذه الأصنام لأن الكعبة ليست لهم وحدهم . بل هى بيت الأمة العربية جمعاء ؛ فلا بد من البحث عما يرضى كل قبيل فى الأمة وإلا غاض رزقهم . وخسرت تجارتهم .

ذكر الأزرقى أنه كان يدفع لسادن (هبل) مئة درهم ومئة جزور ليضرب قداحه ويستقسم بأزلامه (٢) ، فالكعبة إذن كانت فى نظرهم بمنزلة (البنتيون Pantheon) عند قدماء اليونان ، فهى مجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم . (٣) فلا غرابة إذن إذا كنا نرى صورة المسيح عليه السلام وأمه فى الكعبة ، طلبا لرضا القبائل المتنصرة . والبطون المسيحية كالغساسنة واللخميين وغيرهم .

وهذه النظرة إلى قريش تفسر لنا كثرة ورود كلمة التجارة والبيع والشراء فى القرآن فى أكثر من موضع .

قال تعالى فى تصوير المثل الأعلى للرجال المخلصين لدينهم ، الحراص على رضا ربهم : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) .

(١) ص ٢٧ إلى ٢٩ الأصنام للكلبى .
(٢) ص ٦٨ و ٦٩ اخبار مكة للأزرقى .
(٣) ص ٣٩ سديو .

وقد لازمت هـذه الصفة أهل مكة حتى بعد هجرتهم إلى المدينة . قال تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) . وقال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) هـذا ما استطعنا أن نتحدث به عن النصرانية فى بلاد العرب . وموعدنا إن شاء الله العدد القادم : « اليهودية فى بلاد العرب » .

عبد الوهاب حمودة

— ١ —

* شكا رجل إلى قاض من قضاة المسلمين ، فقال له : إن لى جيراناً يسرقون إوزى . فنادى القاضى : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم فقال فى خطبته : وأحدكم يسرق إوز جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه . فمسح رجل رأسه . فقال القاضى : خذوه فانه صاحبكم .

— ٢ —

* قال معاوية لعبد الله بن عامر . إن لى اليك حاجة أتقضيها ؟ قال : نعم ، ولى اليك حاجة أتمضيها ؟ قال : نعم ، قال : سَلْ حاجتك ؛ قال : أريد أن تَهَب لى دورك وضياعك بالطائف ؛ قال : قد فعلت ، قال : وَصَلَتْك رحم ، فسَلْ حاجتك ، قال : أن تردّها علىّ ؛ قال : قد فعلت .

---

* هاتان الطرفتان وغيرهما مما تقرأه القراء فى هذا العدد من نسخة مخطوطة من كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزى — اختارها الأستاذان : ابراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .